التراث الأرثوذكسي

ISSN 1814-7038

السنة التاسعة عشرة، العدد الحادي عشر، آب ٢٠٢٣

مختارات آبائية / حياة روحية / كتاب مقدس / لاهوت

القديس ثيوفانس الحبيس، الارتفاع الروحي للصليب

الميتروبوليت سوتيريوس، مطران بيسيديا، ميلاد والدة الإله

الميتروبوليت بندلايمون، مطران فاريا وناووسا وكمبانيا، الشروط الثلاثة لخلاصنا

الأرشمندريت زخريا زخارو، سر والدة الإله

الأرشمندريت بطرس، رئيس دير القديس يوحنا المعمدان، أسكس، بريطانيا، نور المسيح وتجلي الإنسان

الارتفاع الروحي للصليب

القديس ثيوفانس الحبيس
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

لقد حلّ عيد رفع صليب الرب. لقد نُصِب الصليب في مكان مرتفع ليراه الناس ويكرّموه. فالآن يُرفع الصليب في الكنائس والأديرة. لكن هذا كله خارجي. هناك تمجيد روحي للصليب في القلب. وذلك عندما يعقد الإنسان العزم على صلب نفسه، أو إماتة أهوائه – وهو أمر أساسي جداً عند المسيحيين، لدرجةٍ أنهم فقط للمسيح الذي لأجله صلبوا جسدهم مع أهوائه وشهواته، بحسب الرسول (أنظر غلاطية ٥:٢٤). وبعد أن رفع المسيحيون هذا الصليب في أنفسهم، ظلّوا يمجدونه طوال حياتهم. فليسأل كل إنسان مسيحي نفسه هل هذا هو الحال، وليستمع إلى الجواب الذي يقدمه له ضميره في قلبه. آه، عسانا لا نسمع: "إنكم فقط تُرضون أجسادكم بالأهواء؛ صليبكم ليس مرفوعاً، بل مرمي في جب الأهواء، ويتعفن هناك من جراء الإهمال والازدراء!"

عندما أُنزل الرب عن الصليب، بقي الصليب على الجلجثة، ثم تم إلقاؤه في الحفرة التي كانت في ذلك المكان، حيث تُلقى عادةً أداة الإعدام هذه مع النفايات الأخرى. بعد ذلك بوقت قليل دُمِّرَت أورشليم وسويت جميع صروحها بالأرض. كما امتلأت الحفرة التي حوَت صليب المسيح. ولما أعاد الوثنيون بناء المدينة (إذ كان اليهود ممنوعين من الاقتراب من المكان الذي كانت فيه)، حدث أنهم وضعوا في المكان الذي كان فيه صليب المسيح صنماً لفينوس، الإلهة الوثنية للزنا وكافة أنواع الشهوات. هذا ما اقترحه عليهم العدو [الشيطان].

هذا هو الحال مع صليبنا الداخلي. عندما يدمِّر العدو النظام الروحي في النفس، أورشليمنا العقلية، يُطرح الصليب الروحي من جلجثة القلب ويغطّى بقمامة الأهواء والشهوات. ثم ترتفع اللذة الذاتية الشهوانية كبرج فوق كامل سلامنا الداخلي، وكل ما فينا يسجد له ويتمم أوامره إلى أن تشرق علينا النعمة، وتُلهمنا لإسقاط الوثن ورفع صليب صَلْبِ الذات.

Source: St. Theophan the Recluse. The Spiritual Exaltation of the Cross. From: Letters on the Spiritual Life. Pravoslavie /OrthoChristian. 9/27/2012. https://orthochristian.com/39363.html

ميلاد والدة الإله

المتروبوليت سوتيريوس، مطران بيسيديا
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

" ميلادكِ يا والدة الإله بشَّر بالفرحِ كلَّ المسكونة، لأنّهُ منكِ أشرق شمس العدل المسيح إلهنا، فحلَّ اللعنة، ووهب البركة، وأبطل الموت، وأعطانا حياةً أبدية." (طروبارية عيد ميلاد السيدة).

إن ميلاد مريم العذراء الدائمة البتولية والدة الإله، الذي يُحتفَل به في الثامن من أيلول، هو مصدر فرح روحي كبير. المرأة المولودة هي التي ستلد "في الجسد" الإله الكلمة الأزلي، خالقَ العالم ومخلّصَه، الذي أبطل الموت لكي تكون لنا الحياة الأبدية. وهذا العيد البهيج لا يشارك فيه البشر فقط، بل الكون كله، بما في ذلك عالم الملائكة غير المنظور.

إذا كان العالم بأسره مبتهجاً بولادة مريم "الممتلئة نعمة"، فيمكننا أن نتخيّل كيف شعرت والدتها حنة، خاصة بعد أن تغلبت على عقمها الجسدي. بالإضافة إلى ذلك، هناك والدها يواكيم، الذي رأى تحقّق صلواته الحارة إلى الله بأن يصبح أباً، ولو في سن الشيخوخة. كل هذا كان بالتأكيد معجزة! وكما نعلم من العهد القديم، بارك الله أيضاً نساءً أخريات بهذه الطريقة. يمكننا أن نتذكّر سارة، زوجة البطريرك إبراهيم؛ ورفقة زوجة إسحق؛ حنّة أم النبي صموئيل. ومع ذلك، فإن حالة حنّة ويواكيم مختلفة في جانب رئيسي واحد. ففي حين أنجبت الأمهات المذكورات أعلاه أطفالاً فاضلين ومقدَّسين، فإن طفلة حنة ويواكيم كانت ستصير والدة الإله القديسة!

إن أمنا القديسة، كما سمعنا، وُلدت بعد صلاة متواصلة وقلبية من جدّي الإله البارّين يواكيم وحنة. ومع ذلك، لكي تأتي هذه البركة، كان عليهما أن يقتنيا إيماناً لا يتزعزع ومثابرة لا تُقاس. لقد أنميا رجاءً لا يخيب، إذ صليا بثقة أن الله سيستجيب صلواتهما. نحتاج أيضاً إلى الأخذ في الاعتبار أن عدم الإنجاب هذا لم يحدث لفترة قصيرة، ولكن كما يعلمنا التقليد، أنجبت حنة والدة الإله بعد خمسين عاماً من العقم. يجب أن يصبح سلوك الجدّين القديسَين قدوة لنا. على الأزواج غير القادرين على الإنجاب ألا يفقدوا رجاءهم في الله، لأن "غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله" (لوقا ١٨:٢٧).

إن مثل هذه المعجزات، التي نراها تحدث حتى في أيامنا هذه، ليست نادرة. ولكن المطلوب في مواجهة مثل هذه الجهادات هو أن نتطلّع إلى والدَي والدة الإله للاستلهام منهما. كبشرٍ ذوي نقاط ضعف، فإننا نتعب ونتذمر أثناء جهادنا. نشكو من أن صلواتنا لا تُسمع، ونفقد صبرنا. وفي الحزن تتلاشى حماستنا، وتتركنا معها الرغبة في مواصلة الجهاد. لا ينبغي أن ننسى الجدّين القديسَين يواكيم وحنة! هل توقفا عن الدعاء إلى الله لأنه لم يستجب لصلواتهما مباشرة؟ هل كفّا عن السؤال والطرق والرجاء؟ حقاً، لقد كان صبرهما وتصميمهما غير متزعزع طيلة سنوات عدة! وفي النهاية، كوفئ إيمانهما. في أوقات الألم، ما نحتاجه هو الثقة بوعود الله ومشيئته، واللجوء إليه بالطاعة المطلقة والرجاء، حتى لا نملّ الصلاة (أنظر لوقا ١٨:١). يعلم الله متى وكيف يكون من المفيد لنا أن نتلقّى هبتَه التي لا تقدر بثمن والتي لا توصف، أي نعمته الإلهية!

فلنسلك أيضًا كما فعل الصدّيقان يواكيم وحنة، ولنكنْ هادئين في مواجهة التجارب أو الصعوبات التي يسمح بها الله لمنفعتنا الروحية وتقدّمِنا. ليشفِ الرب، بشفاعات والدة الإله القديسة، قلوبنا المضطربة التي تفتقر إلى الإيمان والرجاء والصبر والثقة والثمر الروحي. وليملأ نفوسنا أيضاً بنعمته الإلهية القادرة على كل شيء، التي تشفي كل مرض وتكمّل كل نقص، فتتجدد البشرية. آمين.

Source: Metropolitan of Pisidia Sotirios. Homily on the Birth of the Theotokos. Pemptousia. 8 September 2020. https://pemptousia.com/2020/09/homily-on-the-birth-of-the-theotokos/

الشروط الثلاثة لخلاصنا

الميتروبوليت بندلايمون، مطران فاريا وناووسا وكمبانيا

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

«مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي» (مرقس ٨:٣٤).

منذ بعد الأيام، احتفلت كنيستنا بعيد رفع الصليب الكريم المحيي؛ واليوم، الأحد بعد عيد الرفع، تذكّرنا قراءة الإنجيل بأهمية الصليب في حياتنا. لأنه على الرغم من أن المسيح صعد على الصليب من أجل خلاصنا وعلى الرغم من أن صليبه هو رمز القوة والرجاء لكل من يؤمن به، إلا أن الإيمان النظري ليس كافياً؛ مطلوب أيضاً دليل عملي على هذا الإيمان. وهذا يكون على النحو الذي يشير إليه المسيح في قراءة إنجيل اليوم، عندما يقول: "مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي".

كلمات المسيح هذه ليست مجرد دعوة؛ إنها أيضاً تعريف للشروط الثلاثة المطلوبة لنا لإظهار إيماننا واقتناء الخلاص والفداء، وهو ما قدّمه المسيح من خلال موته على الصليب.

الشرط الأول هو إرادتنا الحرة في اختيار هذا الطريق. المسيح واضح. ما من أحد مجبَر على سلوك هذا الطريق. ما من أحد يتعرّض للضغوط ولا أحد مُهدد. " مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي". وحدهم الأشخاص الذين يريدون سلوك الطريق يستطيعون ذلك.

الشرط الثاني هو أن ننكر أنفسنا: " فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ". كلّ ما يربطنا بعاداتنا وأهوائنا، وكل ما يربطنا بالأهواء والدنيويات، كل ما يصعُب علينا الاستغناء عنه، حتى ولو لم يكن سيئاً، حتى ولو لم يكن خاطئاً، لا يتوافق مع قرارنا بالسير وراء المسيح.

غالباً ما نظنُّ نحن البشر أننا قادرون على القيام بكل شيء. نعتقد أنه يمكننا أن نعيش حياتنا كما يروق لنا وكيفما أحببنا، وأن نكون في نفس الوقت أعضاء في الكنيسة ظانّين أننا نحيا حياة مسيحية. لكن المسيح يوضح ذلك: يجب على مَن يتبعونه أن يكونوا مكرّسين له بالكامل. لا يمكننا أن نحيد عن الطريق أو ندعَ أعيننا تشرد، لأننا حينها لا نكون نتبعه؛ لا يمكننا أن "نخدم سيدين".

لذلك، إذا أردنا حقاً أن نتبع المسيح، فعلينا، على قدر استطاعتنا، أن ننكر أنفسنا ونغلق آذاننا عن نداءات العالم ونلتصق بالمسيح، الذي لا ينبغي أن ندع نظرنا يحيد عنه ما دمنا على قيد الحياة على هذه الأرض.

بطبيعة الحال، هذا الإنكار الذي يطلبه المسيح منا ليس قراراً أو فِعلاً وقتياً، بل هو صراع علينا خوضه يومياً مدى الحياة. وهو مطلوب إذ بدونه لا يمكننا تحقيق الشرط الآخر، وهو أن نحمل صليبنا.

"وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ". هذا ما يطلبه المسيح من الذين سيتبعونه. لذلك لا يمكننا أن نتبعه إلا إذا حملنا صليبنا. لا يمكننا أن نتبع المسيح بدون صعوبات وجهد، بدون تضحيات ودموع. لا يوجد صليب بدون ألم، ولا يمكن لأي صليب أن يكون خفيفاً. ولهذا جعل المسيح إنكار الذات شرطاً لنا لكي نرفع صليبنا. فقط إذا تحررنا من الأعباء الأخرى نكون قادرين على رفع صليبنا. وإلا فلن نتمكن من تحمّل الثقل، وسننهار ونتخلى عن المحاولة. الهدف هو أن نصل إلى النهاية، أن نصل إلى غايتنا.

فلنجتهد إذن، أيها الإخوة والأخوات، لنحقق الشروط التي وضعها المسيح، حتى نحتمل نحن أيضاً صليبنا بالصبر، ونبلغ هدفنا متّحدين به، حتى نتمتع بالحياة الأبدية التي أعطاها لنا من خلال تضحيته على الصليب.

Source: Metropolitan Panteleimon of Veria, Naousa and Kampania. The Three Conditions for our Salvation: Homily on the Sunday after the Elevation of the Honorable Cross. Pemptousia. 20 September 2021. https://pemptousia.com/2021/09/sunday-after-the-elevation-of-the-honorable-cross-the-three-conditions-for-our-salvation/

سر والدة الإله

الأرشمندريت زخريا زخارو

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

"حصّن عقلي يا مخلصي، لأني أجسر أن أمجّد أمّك الطاهرة حصن العالم" (البيت، سحر عيد الرقاد).

مجدداً لدينا عيد، وكل عيد هو فرصة عظيمة للتعبير عن امتناننا لله، وتقديم الشكر له فهو " يَوْمًا فَيَوْمًا يُحَمِّلُنَا إِلهُ خَلاَصِنَا" (أنظر أنافورا القداس الإلهي، والمزمور ٦٨:١٩).

إذ نقترب من أعظم أعياد والدة الإله، ألا وهو عيد رقادها، نشكر الرب على الآيات والعجائب العظيمة التي صنعها في شخص أمه الطاهرة وعلى تدبيره الفائق الوصف لخلاص البشرية الذي حققه من خلالها. إن سر العذراء القديسة المنسوج بتجسد الله الكلمة يشكل "سر التقوى العظيم" (١تيموثاوس ٣:١٦) المشمول في اسم ثيوطوكوس أي "التي ولدت الله" (القديس يوحنا الدمشقي).

في الكتاب المقدس كما في السنوات الأولى للمسيحية، ظل هذا السر " مَكْتُومًا" (رومية ١٦:٢٥) وبقيت الوالدة الفائقة القداسة في حالة من التعتيم. وسط "الظلال والأقوال السرية"، يحتوي العهد القديم على نبوءات عنها، حيث "نسلها" سوف "يسحق رأس" الحية الشريرة (انظر تكوين ٣:١٥)، كما عن ولادة المسيح من عذراء (أشعياء ٧:١٤).

تخبرنا الأناجيل عن بشارة والدة الله وميلاد المسيح، لكن الإشارات الأخرى إليها، خاصة بعد بداية خدمة المسيح العامة، قليلة جداً. لا يقدّم الإنجيليون والدة الإله إلى جانبه عند صنع المعجزات، أو عندما كان الجمهور يهتف له، أو في بهاء مجده في ثابور، بل حين لم يستطع الجمع تحمّل كلماته القاسية فأراد رجمه، وخاصةً أثناء تعرضه للإذلال الشديد والإهانة على الصليب.

بعد القيامة، وعلى الرغم من أنها كانت أول من ظَهَر له الرب، كما يثبت القديس غريغوريوس بالاماس [العظة عن حاملات الطيب] حيث يشير إليها الإنجيليون بطريقة مستترة على أنها "مريم الأخرى" (متى ٢٨:١). ومع ذلك، فإنه بعد المجمعين المسكونيين الأولين، حيث صيغَت وتثبتت عقيدة لاهوت المسيح بشكل لا يتزعزع، جرى أيضاً ترسيخ شرف الأم الفائقة القداسة بشكل لا رجعة فيه. أحبها المؤمنون بامتنان غير محدود لأنها "ولدت علة السرور والابتهاج" (الباراكليس الصغير، الأودية الخامسة، القطعة الأولى)، وتغطى وجه الأرض بالكنائس والأيقونات المكرّسة لها.

لم يولد ولن يولد مثلها أبداً - السيدة الفائقة البركات التي أصبحت والدة الإله، ربنا يسوع المسيح. خلق الله الإنسان على صورته ومثاله. زينه بمواهب استثنائية ونفخ في أنفه نسمة الحياة. وصار الإنسان روحاً حية (أنظر تكوين ٢:٧). يستطيع الإنسان أن يعكس كمال الله للعالم المخلوق لأنه يجمع بين العالم المادي والروحي في شخصه.

لقد حسد العدو العظمة التي لا توصف التي منحها الله للإنسان وأثار عصيان وسقوط آدم الغبي. لكن المحبة الإلهية لا تتغير وأحشاء الرحمة الإلهية لا تُدرَك. الله "لم يترك شيئاً لم يعمله" ليحرر الإنسان من قيود الخطيئة والموت ويعيده "إلى الشبه"، ليعيد فيه "جماله القديم" ويمنحه "الوطن المحبوب"، أي الملكوت.

أنجب آدم وحواء ولدين، قايين وهابيل. في هابيل، سادت النعمة التي بقيت في والديه واتبع طريق البِر ومخافة الله. في قايين، ساد عنصر ارتداد والدَيه. صار شرساً وقتل أخاه هابيل. خرج من هذين تياران تدفَّقا عبر تاريخ البشرية: أولاً، تيار الأبرار الذي أشرق في ذاكرتِه بصورةٍ ضبابيةٍ نورُ نعمةِ الفردوسِ التي كانت في البدء، فسعى إلى عيش حياة ترضي الله؛ وثانياً، تيار العمالقة، أي أولئك الذين اتخذت فيهم المشاعر أبعاداً عملاقة، وعُزلوا عن عهود الله.

من خلال تيار الأبرار، كان الله يهيئ طريقه نبوياً. في بعض الأحيان، أعطاهم إعلانات وكلمات نارية، جعلوها معروفة لجيلهم لكي تُحفظ التقوى على الأرض. كانت عين الله عليهم، ليرى "إذا كان هناك من يفهم ، ويطلبه" (مزمور ٢:١٤ ٣:٥٣) "إذا كان هناك من يعمل الخير" بطريقة كاملة وفريدة من نوعها. ووجد هذا الشخص في مريم العذراء الفائقة القداسة.

كانت العذراء مريم ثمرة صلاة يواكيم وحنة القديسين البارين. لم يكن الحبل بها بدون بذرة، ولكن بدون شغف من نسل يواكيم الطاهر (الدمشقي، عظة في ميلاد السيدة). كانت مليئة بالنعمة منذ لحظة ولادتها لأنها في شخصها قطّرت قداسة الأجيال السابقة. لقد كُرّست للهيكل منذ صغرها، حيث عاشت في الهدوئية والصلاة ودراسة الكتاب المقدس.

تميزت الطفلة التقية مريم بمحبة غير عادية لله، وكانت تشتاق إلى الشركة معه من خلال الصلاة. بالطبع، كان ميلها إلى الصلاة يعتبر غريباً بحسب معايير العالم الساقط، على الرغم من أنه في الأساس تعبير عن الحالة الطبيعية للإنسان المخلوق على صورة الله ومثاله.

بالصلاة ودراسة كلمة الله كانت قوة النعمة تتعاظم في قلبها. كانت النعمة توسّع قلبها كي يشمل الله والإنسان. جاءت اللحظة التي وصلت فيها آثار النعمة إلى حد معين وولّدت الوعي بداخلها بعلاقتها الأنطولوجية مع البشرية جمعاء من البداية إلى النهاية. لقد أنجزت هذه النعمة أيضاً الحدث الفائق الوصف لاتحاد الإنسان المخلوق مع الله غير المخلوق في واحد، اتحاد قلبها مع روح الله. من ذلك الحين وصاعداً، رغم صغر سنها، تألّمت من جهة لبؤسِ وجهلِ البشر ومن جهة أخرى من العطش إلى إله آبائها الحي. وبشكلٍ تلقائي، بدأت تتشفع وتضرع إلى الله نيابة عن كل إنسان ولد على الأرض.

أثناء دراستها للكتاب المقدس، "عِنْدَ لَهَجِها اشْتَعَلَتِ النَّارُ" (مزمور ٣:٣٩) عندما صادفت النبوءة ، " هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ «عِمَّانُوئِيلَ»". بتوق لا يُطفأ إلى الله الذي سيأتي إلى الأرض لينقذ شعبه "من كل آثامهم" (استيخن من "يا رب إليك صرخت" في صلاة الغروب) بدأت تصلي لتصبح جديرة بأن تكون أُمَة والدةِ عمانوئيل. في هذه الحماسة في الصلاة، ظهر لها رئيس الملائكة وأعلن أنها لن تكون خادمة والدة

المسيح، بل هي نفسها سوف تعير جسدها للذي سوف يولَد بدون أم من جهة الأب وبدون أب من جهة الوالدة. حملت العذراء الكلية القداسة ابن الله بطريقة فائقة للطبيعة بالروح القدس وكانت ولادتها له فوق الطبيعة. بالطبع، لكي يتلقى الإنسان أي موهبة روحية، يجب أن يكون هناك بعض التطابق بين الموهبة وما في قلبه. وفي حالة والدة الإله الفائقة القداسة، نجد هذا التطابق في تواضعها الذي كان صورة نبوية لتواضع ابنها وإلهها الذي لا يوصف.

يرتبك الذهن حائراً إزاء "المعجزة غير المُدرَكة" التي حدثت، لذا نعترف برهبة: "أيتها البتول الطاهرة، إن حدود الطبيعة قد غُلبَت فيك، لأن المولد بتولي والموت قد صار عربوناً للحياة" (أرمس الأودية التاسعة من قانون سحر عيد الرقاد).

"بعد الولادة بتول" لأن الأم الفائقة القداسة كانت عذراء عند ولادة الرب يسوع وبقيت كذلك بعد ميلاده. يشهد الكتاب المقدس على عذريتها قبل الحبل بالرب. استقبلها يوسف الحكيم طاهرةً من قدس الأقداس وانزعج عندما رأى أنها حبلى. اعتاد الإسرائيليون على تدخلات الله العجائبية، لكن لا مثيل للولادة من عذراء في التاريخ المقدس. صمتت الفتاة الصغيرة ولم تدافع عن نفسها رغم أنها واجهت خطر الموت رجماً بسبب حَمْلها الغريب لطفل بدون رجل. لكن الله خاطب قلب يوسف وأخبره بالحدث العجائبي. إذاً، كانت والدة الإله عذراء قبل الولادة.

نعلم أن والدة الإله بقيت عذراء عندما ولدت من خلال خبرة النعمة. أثناء إقامة الرب على الأرض، "كُلُّ الْجَمْعِ كانوا يَطْلُبُون أَنْ يَلْمِسُوهُ، لأَنَّ قُوَّةً كَانَتْ تَخْرُجُ مِنْهُ وَتَشْفِي الْجَمِيعَ." (لوقا ١٩:٦). كيف يمكن لابن الله أن يعبر في رحم العذراء الطاهرة ويترك أي جرح؟ فعليه، ظلت والدة الإله عذراء أثناء الولادة.

كما نعلم أن والدة الإله استمرت في عذريتها بعد ولادة عمانوئيل من الخبرة الروحية عبر الأجيال عند سحابة من المؤمنين المخلصين، وخاصة الرهبان، الذين ينالون نعمة دعوتهم الصغيرة، ويشعرون بهذا الكمال في قلوبهم حتى أنهم لا يقيمون أي اعتبار لآلام الجسد بقية حياتهم. إن محبة الله هي "نار آكلة" (عبرانيين ٢٩:١٩) تحرق "كل فكر شرير" (الأنديفونة الثالثة، اللحن الخامس، سحر الأحد) وتجعل روح الإنسان تتوق وتظمأ إلى " ديار الرب" ويفرح قلبه وحتى جسده "في الإله الحي" (مزمور ٢:٨٤)، وبالتالي بقيت والدة الإله عذراء بعد الولادة.

ومع ذلك، بالرغم من أن الكثيرين يحفظون العذرية الجسدية، إلا أنهم لا يخلصون تلقائياً، كما تعلّمنا من مثل العذارى الجاهلات (متى ٢٥:١-١٢). الشيء الوحيد الذي يعطي البتولية الجسدية معنى وقيمة هو البتولية الروحية، أي نقاوة القلب والعقل، والسكنى في الحضرة الإلهية، والبقاء أو بالأحرى غمر العقل في أعماق روح الله.

"كُلُّهَا مَجْدٌ ابْنَةُ الْمَلِكِ فِي خِدْرِهَا. مَنْسُوجَةٌ بِذَهَبٍ مَلاَبِسُهَا" (مزمور ٤٥:١٣). إنَّ "إِنْسَانَ الْقَلْبِ الْخَفِيَّ" لدى والدة الإله القديسة كان جميلاً جداً، "فِي الْعَدِيمَةِ الْفَسَادِ، زِينَةَ الرُّوحِ الْوَدِيعِ الْهَادِئِ، الَّذِي هُوَ قُدَّامَ اللهِ كَثِيرُ الثَّمَنِ")١بطرس ٣:٤). جمالها مشع بفضيلة التواضع ومزيّن بعذريتها الروحية.

كان قلبها ممنوحاً لله بالكليّة وبلا انقسام. ما ابتعد عقلها أبداً عن ذكر اسمه. لم تكن محبتها له مطلقاً في شركة مع أي محبة أخرى في هذا العالم؛ لم تتزعزع أبداً عن وصاياه. ظلت والدة الله الفائقة القداسة متمنّعة على الخطيئة طوال حياتها، لأن قلبها كان يحترق "بوفرة الحياة"، بنار ملء النعمة.

بالطبع، كإنسان ربما ارتكبت أخطاء بلا خطيئة. لكن حتى هذه كانت بحسب تدبير الله، حتى تتعرف الأجيال اللاحقة على أسرار جديدة. على سبيل المثال، عندما كانت السيدة العذراء ويوسف في طريق العودة من القدس، ظنّا أن يسوع البالغ من العمر اثني عشر عاماً كان مع الحجاج الآخرين الذين برفقتهم، ولم يلاحظوا غيابه حتى قطعا مسيرة يوم. في قلق شديد بحثا عن الطفل يسوع، وفي اليوم الثالث وجداه في الهيكل يحاور معلمي إسرائيل ويفسر الكتاب المقدس.

فالله سمح للسيدة الكلية القداسة أن ترتكب هذا "الخطأ" البريء لكي تعلّمنا أننا لن نجد المسيح وسط أصدقائنا وأقاربنا؛ عندما نفقد الإحساس بحضور المسيح الذي نشتاق إليه بشدة، يستحيل أن نجده في أي مكان إلا في بيته، في الكنيسة، حيث روحه يغمر المؤمنين.

لقد اقتنت السيدة العذراء مريم محبة لا متناهية لله وتواضعاً لا مثيل له. إلى ذلك، فقد كانت مستسلمة بالكامل للمشيئة الإلهية، حتى لو تطلب ذلك حياة على الصليب، وإخلاءَ ذات مستمراً، واستشهاداً داخلياً. لقد خدمت الرب يسوع، ابنها وإلهها، طوال حياتها، بلا أنانية ودون أن يراها أحد. إذا كان علينا أن نحفظ القليل من النعمة، علينا أن نجاهد في إنكار الذات كثيراً، فكم بالحري كان يلزم والدة الإله القديسة في خدمتها أن تكون ميتة تماماً عن العالم وعن نفسها، لتحمَل بملء النعمة، وتحمِل الله المتجسد في أعماق كيانها، لتخدم مشيئته خلاص العالم كله.

مع أخذ ذلك في الاعتبار، يبدأ الظل بالارتفاع عن الآية المثيرة للتناقض: "الموت صار عربوناً للحياة". إن والدة الإله الكلية القداسة كانت "تمُوتُ كُلَّ يَوْمٍ" (١كورنثوس ١٥:٣١). لقد عبرت بالموت المحيي لكل رغبة لديها لكي تجعل إرادة الله الناموس الوحيد لوجودها. كانت تلتصق بقلبها وبأذنيها مصغيةً إلى الرب. لقد كانت تحفظ "كلام الحياة الأبدية" (يوحنا ٦:٦٨) في قلبها. تخلّت عن كل قرابة في هذه الحياة، وتنازلت عن كل عزاء بشري. حتى عند صليب ابنها، عندما تمزقت أحشاؤها الأمومية، فإن والدة الإله القديسة كونها "مثال المسيح" الكامل، لم تكفّ عن التشفع لخلاص الجميع، حتى أولئك الذين قتلوا المسيح في حماقتهم. لقد تحول الموت الذي مرّت به إلى مقدمة لحياة غير قابلة للفناء.

في جملة واحدة، "الموت صار عربوناً للحياة"، يعبّر كاتب التسابيح عن سر عظيم. إن فيض الحياة يفترض طعم الموت، "ملء إخلاء الذات يسبق ملء الكمال"[1]، والقيامة تفترض الصليب. فالموت الطوعي من أجل الوصايا يُنتج عربون الحياة الأبدية، وميراث مجد الله الذي لا يفنى.

1 Archimandrite Sophrony (Sakharov), We Shall See Him as He Is, trans. Rosemary Edmonds, (Tolleshunt Knights, Essex: Stavropegic Monastery of St John the Baptist, 2004), p. 53.

لم تخطأ[٢] مريم العذراء قط، ولا حتى بفكرٍ واحدٍ. لذلك، بما أن الموت هو "أجرة الخطيئة" (رومية ٦:٢٣)، لم يكن له سلطان عليها. ومع ذلك، بالتدبير الإلهي، سُمح للعذراء القديسة أن تموت لتكشف حقيقة اشتراكها الكامل في الطبيعة البشرية، وأيضاً لكي تصبح محاكاة كاملة لابنها، وتسير في طريقه حتى النهاية. توفيت والدة الإله، وبقيت في القبر ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث قامت من بين الأموات. لقد أُسلمت "نفسها الكلية البهاء... في يدي المتجسد منها بغير زرع" (كانين ليتين غروب عيد الرقاد). لقد أصبح موتها غير العادل، على صورة الموت الظالم الذي لحق بالمسيح الطاهر الذي لا عيب فيه، انتصاراً فوق الكون على مستوى الأبدية وإدانةً لموت البشرية.

من الممكن أن يكون الموت أعظم، لا بل أجمل، حدث في الحياة، عندما يكون الإنسان مستعداً جداً وقد حقق بعض الشروط. كلُّ من قد نمّى في هذه الحياة رباط محبة قوياً لا ينفصم مع المسيح، "الَّذِي هُوَ مُخَلِّصُ جَمِيعِ النَّاسِ، وَلاَ سِيَّمَا الْمُؤْمِنِينَ" (١تيموثاوس ٤:١٠)، يصعد إلى الحياة الأخرى على أجنحة المحبة الإلهية، وهناك، في السماء، في يوم الملكوت الذي لا يغرب، يصير شريكًا للرب الحبيب "بشكل أكثر وضوحاً واكتمالاً".

عادة ما نحتفل بعيد ميلادنا باعتباره يوم مجيئنا إلى العالم ونتجنّب التفكير في يوم رحيلنا. ولكن في جوهر الأمر، فإن موت الذين ينتمون إلى الرب يمثّل ميلادَهم في أبديته. ثم "يكون فرح في السماء"، "لأَنَّهُ قَدْ وُلِدَ إِنْسَانٌ فِي ٱلْعَالَمِ" ملكوت الله الأبدي (أنظر يوحنا ١٦:٢١).

إن رقاد والدة الإله الكلية القداسة هو فصحها، وانتقالها من الحياة الوقتية إلى الحياة الأبدية، وعبورها من "المحزنات إلى الصالحات والمبهجات والراحة والفرح" (الأفشين السادس من صلاة السجدة).

"لوجه ملكة السماوات يصلي أغنياء الشعب" (أنظر مزمور ٤٥:١٢). "الفقراء بالروح"، المتواضعون ولكن الأغنياء في المواهب الروحية، يحتفلون بعيد والدة الإله بطريقة إلهية. كل مَن هم مثل والدة الإله، "وَادِّينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْمَحَبَّةِ الأَخَوِيَّةِ، مُقَدِّمِينَ بَعْضُهمْ بَعْضًا فِي الْكَرَامَةِ"، (رومية ١٢:١٠) "الودعاء والمتواضعو القلب" (متى ١١:٢٩)، العذارى بالعقل والروح، المستسلمين للعناية الإلهية حتى عندما تسمح بالآلام والتجارب في حياتهم، سوف يكرمونها ويباركونها كما يليق.

من بين المولودين على الأرض، كانت أليصابات البارة أول من وجّه كلمات الشكر للعذراء القديسة عندما بلغها سلامُها. صرخت أليصابات: "من أين لي أن تأتي أم ربي إليّ؟" (لوقا ١:٤٣). أصبحت كلمتها النبوية هذه مصدراً لكلمة نبوية أخرى، هذه المرة من العذراء القديسة نفسها، التي في تسبحة الشكر الخاصة بها عظّمت الرب واعترفت بعدمها وتنبّأت: "ها منذ الآن تطوّبني جميع الأجيال" (لوقا ١:٤٨).

ولكن كيف يمكننا أن نكرّم سيدتنا الكلية القداسة ونعرب عن امتناننا لها، نحن آخر المسيحيين وفقراء كل العصور وحثالتهم؟ كيف يمكننا تحقيق نبوّتها؟ كيف يمكننا أن نعطي قيمةً للتراتيل والصلوات التي نرسلها إليها سواء عندما نكون بمفردنا أو في خدَمِنا المشتركة في الكنيسة؟

٢ تجدر الإشارة هنا إلى الفرق بين الفعلين أخطأ وخطئ. فالإنسان يخطأ خطيئة بينما يخطئ خطأً. هذا الخلط بين الفعلين شائع خاصة في خدمة الجناز حيث الكثير من الكهنة يقولون "ما من إنسان يحيا ولا يخطئ" فيما النص في كتاب الخدمة واضح "ما من إنسان يحيا ولا يخطأ إلا أنت..." (المترجم)

الطريقة الوحيدة لتكريم والدة الإله هي أن نتبع طريقها بثبات، ونتواضع ونقدّم الشكر الدائم على كل شيء، وخاصة على العظائم التي صنعها القدير بها (أنظر لوقا ٤٩:١). على الرغم من فقرنا، فإن شكرنا سيكون تذكرتنا للدخول إلى جوق "أغنياء الشعب" العجيبة، جيش النفوس العذراء من كل العصور، الذين يتألقون بالنقاوة الداخلية والذين "يُخضَرُونَ بِفَرَحٍ وَابْتِهَاجٍ" (أنظر مزمور ١٦:٤٥) ويتبعونها.

لو لم يكن الله قد شهد بنعمته لقوة شفاعتها عبر كل العصور، لكان تلاشى ما لها من كرامة وبهاء. لكن رتب الملائكة وجميع أجيال البشر والكنيسة وشعب الله يعترفون بالعذراء الكلية القداسة والدة الإله، ويعظّمونها ويباركونها ويسبّحونها، كما يظهر في الكلمات التي يوجهها إليها المؤمنون كل يوم: "إفرحي يا والدة الإله العذراء مريم، يا متتلئة نعمةً الرب معك. مباركة أنت في النساء ومبارك ثمرة بطنك، لأنك ولدتِ مخلص نفوسنا".

عندما نقول "والدة الإله والعذراء" فإننا نعترف أولاً أنها أعطت جسداً لأحد أقانيم الثالوث الأقدس، وثانياً، ببتوليتها الأبدية.

'افرحي! يا مريم الممتلئة نعمة" هي تحية رئيس الملائكة لها وهي كانت "المستحقة للنعمة".

"مباركة أنت في النساء ومبارك ثمرة بطنك" هي كلمات المرأة التي صرخت بفرح وسط الجمع متعجبة من "كلمات النعمة الخارجة من فمه" (لوقا ٢٢:٤) قائلة: "طوبى للبطن الذي حملك والثديين اللذين رضعتهما" (لوقا ٢٧:١١).

الكلمات الأخيرة من التسبحة والتي تقول: "لأنك ولدت مخلص نفوسنا"، هي كلمات الكنيسة التي تعبّر عن امتنان شعب الله. في بدء الخليقة، قال الرب: "ليكنْ"، وكان كل شيء إلى الوجود. في بدء إعادة الخليقة قالت العذراء القديسة: "ليكنْ لي بحسب قولك"، فتجددت الخليقة كلها.

والآن بنفس التسليم لإرادة الله المقدسة والكاملة، فلنقُلْ على مثال أم السماء: "لتكن لنا يا رب مشيئتك،" حتى نكون مستحقين لإعادة الولادة " لَيْسَ مِنْ دَمٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ، وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُل، بَلْ مِنَ اللهِ." (يوحنا ١٣:١) "من فوق" (يوحنا ٣:٣) و"لدخول زاخر" إلى ملكوت الله السماوي، الآب والابن والروح القدس. فهناك تجلس والدة الإله ملكةً عن يمين عرش مجد الله. ومن هناك، تنسكب مراحمها كندىً منعشٍ على نفوسنا "الملتهبة بحال رديئة" (الباراكليسي الكبير، الأودية الرابعة)، وكَسور لا ينهدم تحمي وتؤوي كل من يتبعها ويسير بثبات في طريق إخلاء الذات الذي سلكه ابنها الحبيب . آمين.

Source: Archimandrite Zacharias Zacharou. The Mystery of the Most Holy Mother of God. Pemptousia. 14 August 2023. https://pemptousia.com/2023/08/the-mystery-of-the-most-holy-mother-of-god/

نور المسيح وتجلي الإنسان

الأرشمندريت بطرس، رئيس دير القديس يوحنا المعمدان، أسكس، بريطانيا

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إن لعيد التجلي كلمة خاصة لزمننا، لأنه يكشف لنا المجد الذي سبق الله فعيّنه للإنسان منذ البدء. وهذا مهم جداً لأننا نعيش في زمن نشهد فيه تدهوراً كبيراً للإنسان. لقد فقد الناس هدفهم وإلهامهم في الحياة، فيأتي هذا العيد ليعطينا الطريق للخروج من هذا المأزق.

بعد وقت قصير من اعتراف الرسول بطرس بألوهية الرب، قال المسيح: "إن هنا بينكم قوما لن يذوقوا الموت حتى يروا ملكوت الله آتياً بقوة." "ملكوت الله يأتي بقوة" أعقبها حدث التجلي. يعلّق الأب صفروني أن شهادة بطرس أظهرت أن التلاميذ قد ازدادوا في الإيمان والمحبة للمسيح، مما جعلهم مؤهَّلين لتلقي الإعلان في ثابور. ويوضح الأب صفروني أيضاً أن طبيعة صلاة المسيح في ثابور كانت مشابهة لصلاته في الجثسمانية، وفي حرارة هذه الصلاة تجلى أمام التلاميذ.

لذلك، ليس إيمان التلاميذ ومحبتهم وحسب، بل الأهم من ذلك أن صلاة المسيح فتحت أعينهم ليروا مجده، حتى لا يصيبهم اليأس مطلقاً عندما يرونه مصلوباً. يقول الإنجيل أن "سحابة منيرة ظللتهم"، ويوضح الأب صفروني أن هذا كان نور الروح القدس ونفَسه. ثم سُمع صوت الآب من السحابة، وكانت هذه ذروة الإعلان.

إن التجلي هو، بطريقة ما، عيد صلاة. إنه عيد عزيز جداً على الهدوئيين لأنه يمجّد الصلاة. إن الذين يكرّسون حياتهم للوقوف في حضرة الله وذهنهم في القلب، يدخلون في شركة مع نعمة الله، التي غالباً ما يختبرونها كالنور [لاحظ هنا أل التعريف: المترجم]. ظهر موسى وإيليا على ثابور، لأن المسيح كان حاضراً، وهو ملء الشريعة والأنبياء الذين يمثلانهما.

[تعليق للأرشمندريت زخريا: يؤكد الأب صفروني أننا نتلقى درساً عظيماً من أيقونة التجلي حيث نرى المسيح في الوسط وموسى وإيليا ممثلَي العهد القديم يقفان بجانبه ويسجدان كخادمَين. يقف المسيح في الوسط بصفته الله القدير، باعتباره المصدر الوحيد لكل إعلان، باعتباره مركز رسالة كل التاريخ المقدس من بداية العالم إلى نهاية الزمان. فيه يتّحد العهد القديم بالجديد، لأنه هو المصدر الوحيد لكل إعلان ككلمة الله في كلا العهدين.]

لكن موسى وإيليا ظهرا أيضاً على ثابور لأنهما كانا طوال حياتهما يصارعان الله، ويسعيان باستمرار إلى فهم أحكامه. عندما طلب موسى من الله أن يظهر له نفسه على جبل سيناء، حقق الله رغبته وسمح له برؤية "وراءه" فقط. (خروج ٣٣:١٢-٢٣). كان جبل سيناء مغطىً بسحابة داكنة، أما اليوم فنرى ثابور مغطى بسحابة لامعة، مما يدلّ على أن هذا الظهور كان أعظم بكثير من أي إعلان في العهد القديم. مشى إيليا أربعين يوماً حوريب مُصلِّياً، وهناك أظهر له الله نفسه في "صَوْت مُنْخَفِض خَفِيفٌ " (الملوك الأول ١٩:١٢). إذ تعلم هذان

النبيَّان التحدث مع الله في هذه الحياة، رافقتهما الصلاة في الأبدية، لذا نراهما الآن على ثابور واقفين بجانب كلمة الله، يتحدثان معه وجهاً لوجه، مثل آدم قبل السقوط.

لذلك، يعلّمنا عيد التجلي أن ما ننتظره في الأبدية يبدأ من هذه الحياة: إذا لم نكتسب خبرة الوقوف في حضرة الله والتحدث معه بدءاً من هذه الحياة، فليس من المؤكد أن نحظى بهذه الخبرة في الأبدية. يعبِّر الأب صفروني عن ذلك بشكل أكثر وضوحاً: "إذا لم أغيّر نفسي من هذه الحياة وأصبح مثل الله، فكيف أتوقع أن أكون معه إلى الأبد؟"

إن سرّ التجلّي يعمل دائماً في الكنيسة، إذ إن المسيح يتجلّى باستمرار أمامنا. لدينا ثلاث وسائل رئيسية للدخول إلى حضرة الله: اسمه، وكلمته، والقداس الإلهي. إن استدعاء اسم المسيح بشكل مستمر هو مهمة شاقة، ولكن، يبدو الأمر أحياناً وكأن المسيح يفتح أعين قلوبنا، ونشعر بقوة الحياة الإلهية التي يحملها اسمه. ثم نقف في حضرته الإلهية التي تطهّرنا وتنيرنا وتقدسنا. دعا القديس سلوان اسم المسيح أمام أيقونته، وفي مكانها رأى المسيح الحي.

كثيراً ما نقرأ كلمات الكتاب المقدس، ولكن تأتي لحظة تتجلّى فيها إحدى هذه الكلمات أمامنا، لتكشف كل سرّ الله وكل سقوطِنا، وتجعل أنهاراً من المياه [الدموع] تتدفق من أعيننا. في الطريق إلى عمواس، فتح المسيح عيني لوقا وكليوبا ليفهما الكتاب المقدس بقلب متقد. قال الشيخ خارالامبوس أنه في كل مرة كان يحتفل فيها بالقداس الإلهي كان يفهم جانباً مختلفاً منه. في الواقع، إن سر المسيح لانهائي، ولا يمكننا أبداً إدراكه بالكامل.

على ثابور، أشرق المسيح أولاً كالشمس، ورآه التلاميذ جسداً. ولكن عندما ظللتهم السحابة، رأوه روحاً، فانتقلوا مما هو جسدي وبشري إلى ما هو روحي وإلهي. وبالمثل، فإنه لا يكفي أن نقول إننا نؤمن؛ وفي اقترابنا من سر المسيح، علينا أيضاً أن نختبر في هذه الحياة العبور من الجسد إلى الروح، ومن البشري إلى الإلهي.

وإذا مُنِحنا "الدُخول إلَى مَلَكُوتِ رَبِّنَا وَمُخَلِّصِنَا بِسِعَةٍ" (٢بطرس ١:١١) في هذه الحياة، فلماذا لا نسعى ما في وسعنا لنَيلِ ذلك؟ لا ينبغي أن نتراجع بحجة التواضع الزائف، وفكرةِ أننا غير مستحقين، فإن طروبارية العيد تقول: "فأشرق لنا نحن الخطأة نورك". سوف نقتني تواضعاً حقيقياً وتوبة صادقة عندما نعاين الأبعاد الحقيقية لدعوتنا وندرك إلى أي مدى نحن بعيدون عنها. لقد زرع الله في نفوسنا التعطّش للسعي إليه، ولذلك فمن الطبيعي أن يبحث الإنسان عن شيء "آخر" مغاير لما تراه عيناه الجسدية. وهذا الشيء الآخر المختلف يُعطى له في شركة النعمة التي بها يُلبَس مجد الله البهي، ثوب الجلال (مزمور ١٠٣:١) الذي هو نور ثابور.

أثناء إقامة المسيح المؤقتة في الجسد، كان الكثيرون قادرين على رؤيته بأعينهم، لكن قليلين هم الذين استطاعوا رؤية المجد الذي كان يحمله في داخله. وكان من بينهم، أولاً وفي المقام الأول، والدة الإله. عندما كان القديس يوحنا المعمدان يعمّد في نهر الأردن، كان هو الوحيد الذي استطاع أن يرى هذا المجد في المسيح: "هوذا حمل الله" (يوحنا ١:٢٩). لقد أدرك دينونة الله في هذا المجد، أي أن المسيح قد جاء إليه

ليحمل خطيئة العالم. مثله شُرِّف بطرس ويعقوب ويوحنا برؤية هذا المجد في ثابور. حتى هذا اليوم، وفي كل جيل، قليلون هم الذين يعاينون مجد التجلي مثل التلاميذ؛ وربما عددهم هو أقل من عدد الذين يسمعون صوت الله أيضاً. يصير هؤلاء القلائل بصلاتهم خميرة "تخمّر العجين كله" (١كورنثوس ٦:٥)، أي العالم كله.

في نور ثابور، يصبح الإنسان وسيطاً بين الله وإخوته، وكهنوتاً ملوكياً، يخدم مصالحته مع الله، كما خلاص العالم كله. في الكنيسة الأرثوذكسية، هناك سلسلة متواصلة من التقليد مؤلّفة من هؤلاء الآباء القديسين الذين اختبروا نور الله. ربما لن يرى الكثير منا نور الله هذا أبداً؛ لأنه لا يعطي نعمته بدون تمييز، عالِمِين أننا فعلة بطّالون. ليس من قبيل الصدفة أن نرنم كاطافاسيا الصليب في التجلي، لأنّ بالصليب يصبح نور ثابور مُلكَنا الأبدي. يقول الله الآب: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت. له اسمعوا" (متى ٥:١٧) أي: "أطيعوه". حيثما توجد طاعة لوصية إلهية، فإن سر الصليب يعمل أيضاً.

إذاً، نحن مدعوون لسماعه، أي لأن نتبعه في رحلته من ثابور إلى الجلجلة. بالواقع، إن نور ثابور هو صلب كامل لِمَن يختبره.

سؤال: هل سحابة النور هي وصف مجازي (apophatic) لظهور مجد الله؟

الأرشمندريت بطرس: نعم، إنه أمر مجازي، لكنه يحمل مضموناً تشبيهياً (cataphatic). سمع القديس بولس "كلمات لا يُنطَق بها"، لكنه سمعها بالفعل. كثيراً ما نقرأ عند الآباء القديسين أنهم رأوا نوراً "فوق النور"، لأنه لا يوجد مصطلح أرضي يمكن أن يصف قوة الله غير المخلوقة. يقول القديس مكسيموس المعترف أن الإنسان يختبر السبت عندما يلِج حضرة الله؛ ولكن هناك أيضاً "سبت السبوت". على المثال نفسه، يصف أنبا عمّون صعود النبي إيليا إلى السماء، فيقول إنه بالمقارنة مع نور كل سماءٍ صعد إليها، كان النبي يشعر وكأن نور السماء التي تركها وراءه ظلمة. حتى أننا نعبّر عن هذه الظاهرة بالطريقة التي نبني بها كنائسنا. نمر من الرواق إلى صحن الكنيسة، ومن ثم نصل إلى الهيكل، لإظهار هذا النمط التدريجي من الإعلان.

سؤال: عندما نزل الرب وتلاميذه من الجبل، هل كانت الجموع تنتظره لأنهم أدركوا أن حدثاً عظيماً قد حدث؟

الأرشمندريت بطرس: قال أحدهم ذات مرة أنه حتى التلاميذ كان عليهم أن ينزلوا من الجبل ليفهموا أن ثابور لم يكن النهاية، مع أن بطرس أراد أن يبقى هناك إلى الأبد لو استطاع. إحدى الأسباب التي كانت تجعل الجموع تركض نحو المسيح في الإنجيل هو أنه كان يجذبهم إليه سرياً. من الممكن أنَّه بعد أن كشف الربُّ للتلاميذ عن مجده الأزلي في ثابور، أرادَ أن يحوِّل أذهانهم إلى الجموع التي سيخدمونها فيما بعد. إن النعمة تقود دائماً إلى خدمة الآخرين. رأى القديس سلوان مجدَ المسيح، وعلى الفور احتضن قلبُه العالمَ كله: "أسألك أيها الرب الرحوم، أن تعرفك جميع شعوب العالم [ليس فقط المسيحيين]". عندما يمنح الله نعمته لمختاريه، فإنه لا بدَّ وأن ينتدبَهم لخدمة الأعضاء الأضعف. هذا هو الهرم المقلوب في كنيستنا، حيث الأعضاء الأقوياء يخدمون الضعفاء، على مثال المسيح، الذي "جاء لا ليُخدم بل ليَخدم" (متى ٢٨:٢٠).

سؤال: كيف يمكنني أن أشتغلَ على نفسي اليوم لأصبح إناءً مُعَدّاً للنور غير المخلوق؟

الأرشمندريت بطرس: نحن لا نسير في طريقنا الروحي بهذا الهدف. هدفنا الرئيسي هو أن نتصالح مع الله وأن نزيل من كياننا كل العوائق التي تمنعنا من الانتماء إليه. لا يقول الأب صفروني أن الإنسان يتألّه عندما يعاين نور الله، بل عندما تصبح وصية المسيح هي القانون الوحيد لوجوده. يقول القديس سمعان اللاهوتي الحديث، الذي كانت لهُ خبرة عظيمة ونادرة جداً للنور غير المخلوق، إن الله لن يمنحنا مثل هذه الخبرة لأننا نستعد أو لأننا نصوم؛ إنه يمنحها للمتواضعين في الروح. حتى عندما يغمر النور أولئك الذين اقتنوا التواضع الحقيقي، فإنهم لا يحوّلون انتباههم إليه، لأن في قلوبهم جرحَ محبةٍ عميقاً جداً لمعطي كل صلاح. في مقال جميل عن تجلي المسيح، يستخدم الأب زخريا مثال القديس سلوان ليبيّن أنه عندما ينكشف نور الله للإنسان، فإنه من محبته لله يصبح كالذي فقد عقله. لا يعود بإمكانه تحويل ذهنه إلى أي شيء من هذا العالم، بل يصبح مُستغرقاً دائماً بفكر الله، لأن المحبة هي "غَايَةَ النَّامُوسِ" (أنظر رومية ١٠:٤).

سؤال: متى أدرك المسيح، بعد ولادته في هذا العالم، أنه ابن الله؟

الأرشمندريت بطرس: عندما زارت والدة الإله أليصابات، ارتكض القديس يوحنا المعمدان كجنينٍ في بطنها، إذ قد تعرّف إلى المسيح في بطن العذراء القديسة (لوقا ١:٤١و٤٤). وبالتالي، لا يمكن للمسيح أن يجهل لاهوته على الإطلاق. يقول داود إنه جاء إلى هذا العالم بنِيّة واحدة: "هأَنَذَا جِئْتُ... أَنْ أَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ" (مزمور ٤٠:٧-٨). وقد رآه إشعياء بعينه الصافية النبوية، قائلاً إنه، منذ ولادته، قبل أن يميّز بين الخير والشر، اختار الخير بشكلٍ كاملٍ ومطلق (أنظر أشعياء ٧:١٥). وكذلك، فإن المسيح في حياته على هذه الأرض كان كاملاً في كل مرحلةٍ عمرية. لم يكن كائناً مِسخاً يُظهر حكمةَ شخص بالغ في سن الرضاعة لكونه المسيح وابن الله. كان طفلاً كاملاً عندما كان عمره سنة واحدة، وكذلك في الثانية عشرة من عمره عندما نراه يعلّم في المجمع (أنظر لوقا ٢:٤٢-٤٧)، وكان رجلاً كاملاً في سن الثلاثين عندما بدأ كرازته العلنية. وإذ أنه أقنوم إلهي واحد، كان الرب إلهاً كاملاً وإنساناً كاملاً في كل مرحلة.

سؤال: كيف يمكننا أن نكتسب روح ethos الله؟

الأرشمندريت بطرس: لكي نكتسب روح الله نحتاج إلى الشركة مع نعمة الله. عندما استمر الهدوئيون في الصلاة النقية، اتسعت قلوبهم؛ وقد انتقلت إليهم خصائص الله: التواضع، والمحبة، والوداعة، وأصبحت إرادة الله في خلاص الجميع هي أيضاً إرادتهم. وهكذا اكتسبوا روح المسيح وصاروا يتشفّعون لخلاص العالم كله. المثال الأكثر كمالاً هو القديس بطرس. ما هو أول شيء فعله بعد أن تلقّى لسان المعزي الناري؟ التفت إلى الجمع وقال: "أيها الإخوة، الْمَوْعِدَ هُوَ لَكُمْ" (أعمال ٢:٣٩). لم يكتفِ بذاته، بل التفت إلى الآخرين مباشرةً. هذه هي روح الله. إذا تلقينا حقاً نعمةً من الله، فسوف تظهر في تواصلنا مع إخوتنا: فالوصية الثانية تكشف ما إذا كنا قد حفظنا الوصية الأولى.

سؤال: ماذا لو خشينا أن نفقد النعمة التي نلناها؟ ما هو دور هذا الخوف؟

الأرشمندريت بطرس: مخافة الله هي هبة وقائية. إذ نعلم أننا ضعفاء وساقطون، فإننا نخاف أن نسيء إليه (إلى الله) بقذارتنا ورجاستنا، وأن نحزِن روحه بحياتنا وأفكارنا وسلوكنا وكلامنا. لهذا استطاع القديس يوحنا اللاهوتي والقديس أنطونيوس الكبير أن يقولا: "لم أعد أخاف الله لأنني أحبه"، "المحبة تطرد الخوف" (١يوحنا ١٨:٤) ولكن الطريق إلى المحبة الإلهية تمرّ عبر مخافة الله. إن الخوف من فقدان النعمة قد يظهر بالفعل نقصاً لأننا لم نعرفه كأبٍ لنا. الأطفال الثلاثة هُدِّدوا بإلقائهم في أتون بابل، لكنهم قالوا للملك نبوخذنصر: "إن إلهنا الذي نعبده قادر على أن ينقذنا، وهو ينقذنا. ولكن حتى لو لم يدافع عنا، لا نعبد آلهتك، ولا نسجد لتمثال الذهب الذي نصبته" (أنظر دانيال ١٣:٣-١٨). هكذا هي المحبة التي تطرد الخوف: فإذا عشنا أو متنا، قلوبنا تنتمي إليه وتحبّه حتى الموت. عندما يعرف الإنسان الله كأبٍ له، يسلّم حياته له بالكامل.

سؤال: كيف يمكن لشخص صغير أن يرى النور غير المخلوق وكيف يمكن لهذا الشخص أن يستمر في عيش حياة "طبيعية" بعد هذا الحدث؟ هل سيحتاج هذا الشخص إلى مزيد من التوجيه؟

الأرشمندريت بطرس: قال الرب: "لاَ تَحْتَقِرُوا أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ" (متى ١٠:١٨)، لأنه هكذا هو الرب نفسه. إنه لا يحتقر أحداً وخاصةً الصغار. كثيراً ما كان الأب صفروني يقتبس هذه الآية: "هذَا الْمِسْكِينُ صَرَخَ، وَالرَّبُّ اسْتَمَعَ لهُ" (مزمور ٦:٣٤) في إشارة إلى نفسِه، هو الذي لم يحتقره الله. يمنح الله رؤية النور غير المخلوق لأولئك الذين سوف يستجيبون بشكل صحيح متى حصلوا على الهبة، فتكون لتقديسهم وخلاص كثيرين آخرين من حولهم. ومن المؤكد أن الإنسان بحاجة إلى طلب الإرشاد بعد حصوله على مثل هذه الهبة. بدون الإرشاد الروحي من شخص اقتنى المعرفة بهذه التجربة، يكون طريق الإنسان شاقاً. لم يكن للقديس سلوان شيخ يؤكد خبرته، لكنه جعلها تعلّماً من الرب مباشرة. ومع ذلك، كما يقول الأب صفروني، فإن كثيرين لم ينجحوا، لا بل إن البعض فقدوا عقلهم. إذا نالوا نعمة الكاملين في البداية ثم لم يحظوا بإرشاد، فإنهم لا يعرفون كيف يعيشون، لأنهم لا يعرفون طرق خلاص الله. يقول القديس سمعان اللاهوتي الحديث: إن الصلاة بالتأكيد هي الطريق الذي يؤدّي إلى خبرة نور التجلي. لكن الصلاة ليست كافية. يحتاج الإنسان أيضاً إلى إيجادِ مرشدٍ روحيٍ ووضعِ نفسه تحت طاعته، لأنه حتى لو كان الأب الروحي غير مستحق، فمن الأفضل دائماً أن يكون الإنسان تلميذاً من أن يكون متسلطاً على نفسه.

Source: Archimandrite Peter, Abbot of Monastery of St John the Baptist, Essex UK. The Light of Christ and the Transfiguration of Man. Pemptousia. 11 August 2023. https://pemptousia.com/2023/08/the-light-of-christ-and-the-transfiguration-of-man/